نظرة في حياة
ابن فرح القرطبي

د. علي مصباح النعمي
كلية الآداب

أولاً: الحالة السياسية في عصر القرطبي:

لابد لكل باحث موضوعي تتصل دراسته بشخصية مهمة كشخصية الإمام القرطبي تلك الشخصية المتميزة التي تألقت وأبدعت في مختلف حقول العلم والمعرفة وخاصة العلوم الإسلامية كالفقه والتفسير والحديث، أقول لابد له من أن يلقي الضوء على الواقع السياسي في عصره راسماً صورة حية لأوضاعه العامة والخاصة مؤشراً ما يسوده من استقرار وأمن ووفاق أو اضطراب وفتن وشقاق كاشفاً ما يكتنفه من تيارات فكرية، ودعوات دينية، ونزاعات سياسية هادفاً من وراء هذا كله إلى إبراز مدى تأثير هذا الواقع في معالم شخصية القرطبي رحمه الله، وتكوينه الفكري، والثقافي ودراسته وأخلاقه ومذهبه الديني، لأن الإنسان ابن محيطه وبيئته كما يقال يتأثر بها ويؤثر فيها فهو حيوان سياسي كما يقول أرسطو

أي أنه اجتماعي بطبعه مجبول على حياة الاجتماع والتحضير يساهم مع الجماعة ويتأثر بعاداتها وقيمها فيؤمن ويكفر ويقبل ويرفض ويخدم ويُخدم:

الناس للناس من بدوٍ وحاضرةٍ بعض لبعضٍ وإنْ لم يشعروا خدمُ

ولقد قدّر للإمام القرطبي أن يقضي الشطر الأكبر من حياته في القرن السابع الهجري، وهو القرن الذي يمثّل أسوا وأخطر فترة عرفها التاريخ الإسلامي في عصوره المختلفة من حيث الواقع السياسي والاضطرب سواء المتمثل منه في الأخطار الخارجية أو المنبثق من النزاعات الداخلية فقد تعرضت البلدان الإسلامية ومنها دولة الموحدين إلى غارات الفرنج وهجمات التتار الذين عاثوا بها فساداً وأمعنوا فيها تخريباً فدمروا مراكز العلم والحضارة، وأحرقوا خزائن الكتب، وأذاقوا أهلها المسلمين ألوان العذاب والهوان وبالغوا في التقتيل والترويع واستباحة الحرمات.

يقول ابن الأثير:

لقد بُلي الإسلام والمسلمين في هذه المدة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأمم منها ظهور التتار – قبّحهم الله – أقبلوا من الشرق..... ومنها خروج الفرنج – لعنهم الله – من الغرب إلى الشام وقصدهم ديار مصر وملكهم[1].

على أن الذي يهمنا هنا هو أن دولة الموحدين التي عاش القرطبي الشطر الأول من حياته في كنفها – كانت تمثل البوابة الغربية للبلاد الإسلامية التي خصها الله تعالى بشرف الدفاع عن المسلمين وتلقي سهام العداء الفرنج بصدرها لتمنح ديمومة الحياة لأخوتها في الدين. لذلك كان الفرنج يتحامونها كثيراً لأنهم

[1] . الكامل: ابن الأثير ج2. ص 138.

يعرفون أنها عصبة عليهم، وكلما فكروا في غزوها واحتلالها والقضاء عليها تسيطر عليهم حالة من الرهبة والتردد، وتتراأى أمامهم هزيمتهم القاسية في معركة (الأرك).

يقول عبد الواحد المراكشي.

"وخامرهم الرعب، وخرج الأذفونش – لعنه الله – إلى قاصية بلاد الروم، مستنفراً من أحبابه عظماء الروم وفرسانهم وذوي النجدة منهم...".

لقد أرسى الموحدي (أحمد بن عبد الله بن تومرت) المتوفى سنة 524هـ دعائم دولته على أساس متين من تعاليم الدين قوامه إقامة أركان العدل ونشر الفضيلة، ومحاربة المنكر والرذيلة، والحث على طلب العلم، وهي لعمر الله أمور تنشرح لها الصدور وتطيب بها النفوس، ثم أخذ بتحصين نفسه بأسباب العلم والمعرفة متنقلاً بين الأندلس والإسكندرية وبغداد ومكة، وتتلمذ على أساتذة أجلاء من أهل العلم والدين كالطرطوشي وأبو بكر الشاشي المتوفي سنة 507هـ وفتح عينه وقلبه لأراء العلماء في مختلف المذاهب الإسلامية مقارناً بينها بروح العالم المتبصر، متخذاً لنفسه بعد ذلك رأياً جديداً وطريقة جديدة في التفكير واستنباط الأحكام، ثم قفل راجعاً إلى مرابع صباه ونشأته الأولى في جبل السوس من بلاد المغرب وهي منطقة حبلية حصينة يقطنها البربر الذي ينتمي ابن تومرت إلى جنسهم "ولعله قد اختاره موطناً لدعوته التى كان يعتزم إظهارها لمناعته ووقوعه في أحضان الرُّبى والتلال"[1].

[1] . القرطبي ومنهجة في التفسير . الدكتور القصبي محمود رلط ص 105 وما بعدها.

ثم أنطلق من هذا المكان بإعلان دعوته وخلع على نفسه لقب الإمام المهدي الذي سيملأ البلاد عدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً على يد المرابطين، ثم وضع لأتباعه عقيدة في التوحيد وسمّاهم بالموحدين وطالب الناس بخلع المرابطين، والخروج على طاعتهم ثم عظم أمره وأخذ يهدد دولة المرابطين بالإغارة عليهم واقتطاع أجزاء منها، ولمّا مات ابن تومرت سنة 524هـ واصل تلميذه عبد المؤمن بن علي السير على نهجه وتحقيق أهداف أستاذه في إسقاط دولة المرابطين، وكان له ذلك فأحتل عاصمتهم مراكش سنة 541هـ "وزحف بعد ذلك على الأندلس حيث ورث المرابطين هناك ورثهم في الشمال الإفريقي"[1]. كان عبد المؤمن مثالاً طيباً لرجل الدولة حائزاً على شروط الملك في العدل وعظمة الهيبة وعلو الهمة.

يقول الحافظ شمس الدين الذهبي في حقه:

"كان ملكاً عادلاً سائساً عظيم الهيبة عالي الهمة كثير المحاسن متين الديانة قليل المثل كان يقرأ كل يوم سبعاً ويجتنب لبس الحرير ويصوم يوم الاثنين والخميس ويهتم بالجهاد والنظر في الأمور كأنما خلق للمُلك"[2].

وقد بذل الرجل غايته في تنظيم شؤون الدولة، وجعل يد العمران تمتد في كل أرجائها وأعطى بلاد الأندلس اهتماماً خاصاً وتعهدا بحمايتها والدفاع عنها، ذلك أن ملوك الأمم المجاورة في ليون وقشتالة والبرتغال لم يهدأ لهم بال. ولم يستقر لهم خاطر، إلا باحتلال دولة الموحدين وإخضاعها لسلطاتهم تدفعهم إلى ذلك أحقاد دفينة وأطماع شرهة مما فرض على المسلمين الموحدين أن يكونوا في جهاد مستمر معهم فكثرت الصدامات والغارات على تخوم المسلمين في الأندلس،

[1] .التاريخ الاسلامي والحضارة الإسلامية. الدكتور أحمد شلبي، ج4، ص141.
[2] . العبر: 4: 156.

واشتدت المعارك والاشتباكات، وكانت معركة (الأرك) الأكثر عنفاً والأشهر قسوة من بينها جميعاً والتي وقعت في شعبان سنة 591هـ بين المسلمين الموحدين والنصارى حيث حملت الأخبار أن الفونس الثامن ملك قشتالة أخذ يعيث بالبلاد الأندلسية ويلحق الضرر بأهلها فقام أمير المؤمنين (يعقوب المنصور) بتجهيز نفسه بقوات كافية وعدة عالية ثم توجه بها للقاء الطاغية.

يقول الحميري:

"بلغ المنصور يعقوب أن صاحب قشتالة شنّ الغارات على بلاد المسلمين بالأندلس شرقا وغرباً. في يوم واحد، وعم ذلك جهة إشبيلية ونواحيها فامتعض من ذلك ثم تحرك من حاضرته مراكش إلى الأندلس واستقر باشبيلية"[1].

وجاء في نفح الطيب:

"فتجهز – أي يعقوب – لقصدهم في جيوش موفرة وعساكر مكتبة، واحتفل في ذلك وجاز إلى الأندلس سنة 591هـ فعلم به الإفرنج فجمعوا جمعاً كثيراً من أقاصي بلادهم وأدانيها وأقبلوا نحوه.."[2].

فالتحم الجيشان في مكان يقال له (الأرك) شمال قرطبة وصافح النصر فيها الموحدين المسلمين.

[1] . الروض المعطار ص 12 -13.
[2] . نفح الطيب: للمقري ج4، ص 381.

يقول المراكشي:

"فأنزل الله على الموحدين نصره، وأفرغ عليهم صبره ومنحهم أكتاف الروم، وكانت الدائرة على الاذغنش – لعنه الله – الفونس الثامن وأصحابه ولم ينج إلا هو ونحو من ثلاثين من وجوه قواده. واستشهد من المسلمين جماعة من أعيان الموحدين وغيرهم.."[1].

ورجع الخليفة يعقوب المنصور إلى أشبيلية عاصمة الموحدين بالأندلس، وهو يرفل بأثواب العزة والظفر، وبعد موته خلفه ولده محمد الناصر، وحينها أيقن الفونس الثامن أن الوقت قد حان للتأر والانتقام من الموحدين الذين أوقعوا به هزيمة نكراء في واقعة (الأرك) لكنه كان يعلم أن جيش قشتالة لا يقوى لوحده على مواجهة جيوش الموحدين فاستنجد بالبابا الذي له الفضل الأول في استنهاض نفوس النصارى واستفزاز مشاعرهم فاستجابت لدعوته جموع غفيرة من أنحاء أوروبا من فرنسا والبرتغال وليون.

يقول الحميري:

"الأذفونش بن شانجه لم يقدر في ذلك الوقت على شئ حتى استغاث بأهل ملته وكاتب من قرب وبعد منهم وشكا إليهم ما دهاه من المسلمين وحثهم على حماية دينهم ونصر ملتهم فاستجابوا وجاؤوه من كل جهة.."[2]

[1] . المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص359.
[2] . الروض المعطار: ص 109

وقال المراكشي:

"...فأجتمعت له – أي الاذفونس – جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن المان حتى بلغ نفيره إلى القسطنطينية، وجاء معه صاحب بلاد ارغن المعروف بالبرشنوني – لعنه الله"[1].

وبعد أن استكملت هذه الجموع العظيمة عدتها وعددها سارت باتجاه بلاد الاندلس فخرج للقائها الخليفة محمد الناصر بجيوش تصارعها في العدة والعدد فالتقى الجمعان في معركة (العقاب) في صفر سنة 609هـ، والعقاب منطقة في جبال الشارات تفصل بين الأندلس وأسبانيا – وكانت الهزيمة فيها من نصيب المسلمين لسوء طويتهم وتفرقهم وكان لها وقع شديد على نفوسهم ظهرت آثارها عليهم بعد حين، وكان ثمن وقعها على الخليفة باهظاً حيث خسر حياته ومات بعد فترة قصيرة كمداً وحزناً في شعبان سنة 610هـ، كما "كان لهذه الهزيمة أثر كبير في الإسراع بالدولة الموحدية إلى السقوط والانهيار"[2].

يقول صاحب الروض: (كانت أول وهن دخل على الموحدين)[3].

ومما يجدر ذكره أن الموحدين بدلاً من أن يبادروا ويسارعوا إلى تدارك الهزيمة وآثارها أدخلوا أنفسهم في نفق مظلم من التناحرات والنزاعات فعانت البلاد من اضطراب شديد وضربت الفوضى أطنابها في كل ناحية فيها خاصة، ونحن نعلم أن الخليفة يوسف المنتصر الذي أعقب والده الناصر كان فتىً لم يبلغ الحلم "وليس أخطر على دولة ممزقة من حكم صبي قاصر، بل أن الدولة القوية

[1] . المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص. 399.
[2] . المصدر نفسه ص 401، وعصر المرابطين والموحدين القسم الثاني. ص283.
[3] .الروض المعطار ص 438.

المنظمة كثيراً ما تنهار من جراء ذلك في أعوام قليلة فما بالك بدولة قد أخذت منذ حيت تتمزق وينتشر شملها"[1].

ومات المنتصر، ولم يعقب فتعاظمت الفوضى واشتد التناحر بين الموحدين على اعتلاء العروش فضعفت سلطة الدولة وتشتت قواها، بل وصلت بعده إلى مرحلة الاحتضار بعد بروز ظاهرة القتل والخلع والغمز والاستهزاء من الخلفاء، ونستطيع القول أنه في عهد العادل الموحدين تقلص سلطان الموحدي في الأندلس كما حدث التقلص نفسه لحكمهم في عهد المأمون في شمال إفريقيا حيث استقل بنو حفص بتونس سنة 624هـ واستقل بنو زيان بالمغرب الأوسط واتخذوا تلمسان سنة 632هـ عاصمة لهم وظهر بنو مرين وعظم أمرهم في المغرب الأقصى فاستولوا على ما تبقى من دولة الموحدين واسقطوا مكناس سنة 643هـ وفاس سنة 646هـ وأخيراً وفي سنة 668هـ اسقطوا مراكش وبذلك زالت دولة الموحدين من الوجود في المغرب والأندلس وإفريقيا وتقاسمتها هذه الدويلات كما مر قبل قليل.

"وإذا كان مما حدث للدولة الموحدية من إنهيار وزوال نتيجة تناحر أمرائها على الزعامة والحكم فإن أمراء هذه الدويلات التي ورثت الدولة الموحدية لم يستوعبوا الدرس ووقعوا في الخطأ نفسه فم تتفق كلمتهم ولم تتماسك جبهتهم أمام العدو المشترك لتحاربهم فيما بينهم فاهتبل العدول هذه الفرصة فبدأ حرب الاسترداد فأكثر من غزواته وحروبه حتى تساقطت في يده المدن الأندلسية تباعاً"[2].

[1] .تاريخ المرابطين والموحدين، يوسف اشياخ، ص 401.
[2] . القرطبي ونهجه في التفسير، الدكتور القصبي محمود زلط، ص 112 بتصرف.

فسقطت قرطبة سنة 633هـ مما أدى إلى "قتل كل أهلها المسلمين وتخريب المدينة ومسجدها الجامع وتحطيم سائر ذخائرها وثرواتها"[1].

ثم سقطت بلنسية سنة 636هـ وعاشت مرسية تدين بالطاعة والجزية للنصارى سنة 640هـ إلى أن سقطت في أيديهم سنة 664هـ. وسقطت اشبيلية سنة 646هـ.

وقد كان لزوال دولة الموحدين أثر بالغ في هجرة العلماء وتحولهم إلى المواطن الآمنة، ومنهم شيخنا القرطبي الذي آثر الرحيل إلى مصر والألم يعتصر قلبه وحزن نبيل يلف روحه، وهو يرى المدن الأندلسية تتهاوى وتسقط بيد الفرنج، وما كان يعلم أن الأحوال السياسية في مصر لم تكن بأحسن حالاً من أختها في المغرب والأندلس حيث الحروب الصليبية الطاحنة بين المسلمين والصليبيين التي بلغت مبلغاً لا يطاق إضافة إلى الفوضى والاضطراب الذي عم البلاد بسبب اختلاف الأمراء وتناحرهم على الزعامة.

إن الأطماع الخارجية في البلاد الإسلامية واحدة وإن أهدافها واحدة وهي إذلال المسلمين واستبعادهم واحتلال بلادهم والطامعون سواء لا فرق بين إفرنج وصليبيين وإن تباينت التسميات فالذين استهدفوا المغرب والأندلس هم أنفسهم تحولوا صوب مصر ففي سنة 615هـ شن الصليبيون أولى حملاتهم على مصر واستهدفوا مدينة دمياط ولكنهم أصيبوا بفشل وخيبة حيث نجح الملك الكامل محمد أبن الملك العادل أبي بكر بن أيوب (615-635هـ) على إجبارهم بالخروج من دمياط، وعن هذا يحدثنا أبن الأثير فيقول:

[1]. عصر المرابطين والموحدين، ج2، ص424.

"وأحاط الإفرنج بدمياط وقاتلوها براً وجواً عملوا عليها خندقاً يمنعهم ممن يريدهم من المسلمين واداموا القتال واشتد الأمر على أهلها ووتغذرت عليهم الأقوات وسئموا القتال وملازمته... فسلموا البلد إلى الفرنج بالأمان... وفي سنة 618 استطاع الملك الكامل بمعاونة أخويه الملك المعظم عيسى (صاحب دمشق) والأشرف موسى (صاحب حلب) محاصرة الفرنج في دمياط ودار بين الفريقين قتال عنيف فلما تيقن الصليبيون أنه قد أحيط بهم وأن المنايا كشرت عن انيابها، ذلت نفوسهم وتنكست صلبانهم وضل عنهم سيطانهم وطلبوا الصلح بغير عوض وخرجوا من دمياط"[1].

وفي عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب (636 – 647هـ) الذي في عهده تم جلب المماليك إلى مصر للاستعانة بهم في توطيد سلطته خشية من منافسيه[2].

كرر الصليبيون حملتهم على دمياط بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا وسارت نحو مصر فاستولوا على دمياط.

وخرج الملك الصالح بجيشه وعسكر بالمنصورة لإيقاف زحف الأعداء على مصر، ولكنه مات بعد حين فتولى قيادة الجيش أبنه (توران شاه) بعد أن استقدمته زوجة أبية (شجرة الدر). وأراد لويس محاصرة جيش المسلمين في المنصورة ليسهل عليه احتلال مصر كلها، فسار نحوها ودخلها دون مقاومة تذكر ولكنه فوجئ بهجوم عنيف من جيش المسلمين، ودارت معركة حامية في دروب

[1] . ابن الأثير، ج12. ص 150.
[2] . نزهة السلاطين فيمن ولي مصر من السلاطين: عبد الباسط بن خليل بن شاهين المطلي، ص61.

المنصورة وشوارعها أذعن في نهايتها الصليبيون بالتسليم ووقع في الأسر لويس التاسع ويحدثنا ابن كثير عن هذه الحملة فيقول:

"وفي ثالث المحرم من سنة ثمان وأربعون وستمائة يوم الأربعاء كان كسر المعظم توران شاه الفرنج على ثغر دمياط فقتل منهم ثلاثين وقيل مائة ألف وغنموا شيئاً كثيراً ولله الحمد وكان فيمن أسر ملك الفرنسيس وأخوه"[1].

وبعد أن انتصر الملك توران شاه بمعركة المنصورة أصابه تهور في نفسه فلم يحسن قيادة المماليك كما أساء معاملة زوجة أبيه فاغتيل سنة 648هـ بمؤامرة لأن تدبير الأخيرة ضده وبموته زالت الدولة الأيوبية وقامت على أنقاضها دولة المماليك البحرية التي أراد الله أن يكون خلاص المسلمين من التتار على يد أحد أمرائها فقد ابتليت الأمة الإسلامية بوباء التتار وهو يجتاح بلدانها وينشر الموت والدمار في كل مكان يصل إليه، وكان يقودهم الطاغية (جنكيز خان) الذي دمر وأحرق خزاين الكتب ولما مات (جنكيز خان) سنة 626هـ تابع أولاده وأحفاده نهجه في التدمير والإجرام إلى أن تولى حفيده (هولاكو) القيادة فاتجه نحو الشام بعد أن امتلك خراسان والعراق، وغيرها من بلاد الشرق فعبر الفرات، وما لبث أن ملك دمشق وحلب، ثم أرسل كتاباً إلى ملك مصر يطفح عطرسة وغروراً، ومما جاء فيه:

"من ملك الملوك شرقاً وغرباً" وفيه يقول: "فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب، فأي أرض تأويكم وأي طريق تنجيكم وأي بلاد تحميكم، فما لكم من سيوفنا خلاص"[2].

---

[1] . ابن كثير ج13 ص 178.
[2] .ابن تيمية: الدكتور محمد يوسف موسى، ص16.

وكان على مصر وقتذاك الملك الظافر سيف الدين قطز وكان بطلاً شجاعاً ثابت الجنان فلم يساوره قلق، ولم يداخله خوف، بل أعدّ للأمر عدته إعداد الواثق المنتصر وسار بجيشه نحو الشام والتقى بالتتار في (عين جالوت) وهو مكان فلسطين ما بين بيسان ونابلس واحتدم الجانبان بقتال شديد انتهى بانتصار المسلمين وهزيمة التتار وفرارهم، ثم أوعز الملك المظفر قطز إلى قائده (بيبرس) أن يلحق بهم ويتعقبهم، ويوقع بهم القتل في كل مكان يدركهم فيه.

وهكذا هزم الله التتار في معركة (عين جالوت) على يد الملك المظفر سيف الدين قطز فأراح الله المسلمين من شرورهم.

"إن الملك المظفر وقد عاين أن المسلمين زلزلوا زلزالاً شديداً ألقى خوذته على الأرض وصرخ بأعلى صوته (وا إسلاماه) ثلاث مرات بالله أنصر عبدك قظز على التتار وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة كان بعدها نصر الله المبين..."[1].

ولم يهنأ الملك سيف الدين قطز بحلاوة انتصاره على التتار إلا قليلاً فقد تآمر عليه (بيبرس البند قداري) وهو أحد قواده وقتله سنة 656هـ. واستمر (بيبرس) في السلطة إلى سنة 676هـ وكانت له مواقف في الجهاد معروفة.

هذه هي خلاصة الأحوال السياسية في عصر شيخنا القرطبي والتي أثرت فيه وألقت بظلالها الثقيلة على روحه الشفيفة فلم يخف تأمله وأسفه عما يسود البلاد من فوضى وتمزق نتيجة نشوب الخلافات والصراعات على السلطة، وقد ترجم هذا الموقف في عبارات وتعليقات موجزة.

[1] .ابن تيمية الدكتور يوسف موسى ص 16 بتصرف. ابن كثير ج13 ص 218- 220.

ففي قوله تعالى: (وأذ أخذنا ميثاقكم لا تَسفكون دماءكم) الآية تبين أن الله تبارك وتعالى قد أخذ على بني إسرائيل في التوراة ميثاقاً الا يقتل بعضهم بعضاً ولا ينفيه ولا يسترقه ولا يدعه يسترق.. إلى غير ذلك من الطاعات. ثم بين إن هذا محرم على المسلمين فقال: وهذا كله محرم على المسلمين وقد وقع ذلك كله بالفتن فينا إنا لله وإنا إليه راجعون.

وبعد أن انتهى من تفسير قوله تعالى: "أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض" عقب بقوله :قلت: ولعمر الله لقد أعرضنا نحن عن الجميع بالفتن فتظاهر بعضنا علىً بعض ليت بالمسلمين بل بالكافرين حتى تركنا إخواننا أذلاء صاغرين يجري عليهم حكم المشركين فلا حول ولا قوة إلا بالله"[1].

ثانياً: الحالة الاجتماعية في عصر القرطبي.

تعد معركة العقاب السبب المباشر في بداية انحلال دولة الموحدين، ففي أعقاب هذه المعركة – التي انتهت بهزيمتهم النكراء – دخلت البلاد مرحلة جديدة من الفوضى والانقسام والتمزق.

وبعد موت المنتصر – الذي لم يعقب – تعاظمت الفوضى وازداد التمزق واشتد التناحر بين أمراء الموحدين على الزعامة والحكم، فضعفت السلطة المركزية، وانفرط عقد الدولة وتشتت قواها – ناهيك القول عن اتساع رقعتها – مما فرض عليهم تقليل حجم الاهتمام والعناية بالأندلس، وهو ما ظهر بجلاء في عهد العادل الموحدي الذي كان يعاب عليه فتور الهمة وخمود الجمرة.

[1] . القرطبي ومنهجه في التفسير: الدكتور القصبي محمود زلط ص 119 وما بعدها.

يقول الدكتور حسين مؤنس في هذا الصدد:

"..... ولم تستطيع دولة الموحدين أن تسد مسد المرابطين في الحماسة والجهاد لأن فتح قواها – حتى أيام أبي يوسف يعقوب المنصور – كانت لا تكاد تكفي للمحافظة على نواحي إمبراطوريتهم الشاسعة في المغرب، وكان الأندلس عبئاً ثقيلاً عليهم، وكان ولاتهم فيه أشبه بمن يصفي تركةً وخاصة بعد معركة العقاب. وعندما أراد محمد الناصر رابع خلفاء الموحدين أن يخفف عن نفسه بتقسيم الامبراطورية قسمين كان حريصاً على الجانب الشرقي من أملاكه المغربية أكبر من حرصه على الأندلس.[1]

وهكذا بدأ التمرد على دولة الموحدين بالظهور والتصاعد، فاندلعت ثورات وقامت ممالك واستقلت إمارات. وفي هذا الوقت المتلاطم بالأحداث المتلاحقة كان الأمراء المفتونون بحب السلطة وبهرجتها يهنأون في قصورهم ويعقدون مجالس اللهو والطرب والمجون غير آبهين ما تعانيه الرعية من ضيق وحرمان من أبسط المطالب الحياتية، فاختل الأمن واستشرى الفساد وتردت القيم والأخلاق وانعدم التراحم واختفى التعاون بين الناس حتى أن السلاوي يقول: "لقد أكل الناس بعضهم بعضاً".[2]

وسيطر على الناس خوف وتوجس شديدان وباتوا يخشون على أنفسهم من مصير مجهول ينتظرهم بعد أن عم الخراب المدن المغربية واختفت الأغذية ونضبت الأقوات ووصل الغلاء حداً لا يطاق، وساء الوضع الصحي فانتشرت الأمراض وكثرت العلل وتفشت الأوبئة بحيث ضاقت الأرض على الأموات فكان يحشر العديد منهم في حفرة واحدة.

---

[1] . شيوخ العصر في الأندلس: د. حسين مؤنس ص73.
[2] . الاستقصا: ج2 ص264.

أما الحالة الاجتماعية في مصر – التي انتقل إليها القرطبي – فهي مشابهة لنظيرتها في المغرب والأندلس إن لم نقل أنها كانت تفوقها سوءاً وتفسخاً وتدهوراً فالصراعات والخصومات قائمة على أشدّها بين رجال السلطة والملوك سائرون في غيهم لا يهمهم من أمر الرعية شئ فبالغوا في جباية الأموال وأوغلوا في إيقاع الظلم بالناس وهضم حقوقهم لا يردعهم في ذلك رادع من ضمير ولا خوف من جبار عظيم.

والناس مأخوذون علي أيديهم مغلوبون على أمرهم ليس بمقدورهم إيقاف هذا التدهور المريع في الأوضاع الحياتية العامة فكانت الشكوى من سوء الزمان وتغير الأحوال هي الملجأ والملاذ وهي لعمر الله سلاح العاجز الذي لا قوة له ولا تأثير سوى تطمين الجانب الروحي في عزاء النفس وترضيتها وتأمين السلامة لصاحبها من بطش السلطة وطغيانها. كما آثر الناس النزوع إلى العزلة والإقبال على حياة التزهد والرغبة عن أي طموح دنيوي وأصبح الواحد منهم رهين محبسه لا يبرحه إلا ما يدفع إليه الاضطرار أو تدعو إليه الحاجة، وركبهم قنوط شديد إلا من رحمة الله.

وعن هذا الواقع المؤلم يذكر لنا الشيخ محمد أبو زهرة نصاً مؤثراً عن بعض العلماء الذين "دفعهم العوز واضطرتهم معاناة الخصاصة إلى التنازل عن عزتهم وكرامتهم وما ينبغي أن يكونوا عليه إلى ذل المسألة وهوان التكفف وبذل ماء الوجه للحصول على ما يسد الرمق"[1].

[1]. ابن تيمية: محمد أبو زهرة، ص151 بتصرف.

ولم يكن شيخنا القرطبي – رحمه الله – بعيداً عن هذا الواقع المؤلم فقد كان أحد أبنائه وكان أحد ضحاياه عاش مرارته واكتوى بناره، بل كان موقعه منه كموقع الرأس من الجسد فلم يعطّل دوره ولم يتنكر لمسئوليته فأخذ يرصد ويشخص ويرشد ويوجه وهو يعلم أن مكانته الدينية وما تملي عليه هذه المكانة من واجبات شرعية لا تسمح له أن يلوذ بالصمت إزاء ما يجري ويحدث أمامه من تعسف وظلم ومنكر أو أن لزم نفسه بقاعدة (السكوت في معرض الحاجة بيان) شأنه في ذلك شأن عامة الناس.

لقد أخذت منه الهموم مأخذاً وهو يرى ما آل إليه مجتمعه من ترد وخيانة وانحطاط وما يعانيه الناس من فقر وشطف وحاجة، فدعا – رحمه الله – إلى التزام خصال التعاون والإخاء والتراحم لأن المسلمين يد على ما سواهم وشدد على صلة الرحم وخاصة الأبوين وإن كانا كافرين، ولم يخف اهتمامه بالمحتاجين وبأحوال الناس لذلك أجاز في مثل هذه الأحوال الصعبة سؤال القوت وإظهار الشكوى عند الجوع.

وعندما شاع الفساد والمنكر أوصى بعدم مخالطة أهل الكفر والمعاصي ودعا إلى هجرة واعتزال الناس.

والأمر الجدير بالذكر أن صاحب الدراسة – رحمه الله – لم يكن من أعوان السلطان أو كان من الذين يسعون إلى التزلف إليه أو التقرب منه طمعاً في الحصول على مالٍ أو حظوةٍ أو جاهٍ، بل كان الرجل على عكس ذلك تماماً فقد عرّض بالحكام وسياستهم ونعي عليهم ظلمهم للرعية وإغراء الناس على ترك الجهاد وحمّلهم مسؤولية تمكين الكفار من احتلال البلاد الإسلامية والسيطرة عليها. على أن الذي أولى به وقاله بصوت عالٍ جاء من خلال تفسيره لآيات من

الذكر الحكيم وقد ضمنه أراءه الشخصية، يقول في المسألة (11) الآية (249) من سورة البقرة: (فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهرٍ فمن شرب منه فليس منكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين).

"... فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة غير موجودة فينا فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وأحل بنا بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره ولا من الدين إلا رسمه لظهور الفساد ولكثرة الطغيان وقلة الرشاد حتى استولى العدو شرقاً وغرباً براً وبحراً وعمت الفتن وعظمت المحن ولا عاصم إلا من رحم"[1].

وكان حريصاً على الاهتمام بحرية الإنسان وكرامته وما يتعرض له الناس من عسف وقسوة في التعامل في غير وجه حق، فيقول عند تفسيره للأية (130) من سورة الشعراء: (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) ".. قلت: وهذه الأوصاف المذمومة قد صارت في كثير من هذه الأمة لا سيما بالديار المصرية منذ وليتها البحرية فيبطشون بالناس بالسوط والعصا في غير حق وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ذلك سيكون"[2].

وفي محاولته دفع الظلم الاجتماعي منع القرطبي – رحمه الله – أخذ الرشوة، فيقول عند تفسيره للآية (188) من سورة البقرة: (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام).
"قلت: فالحكام اليوم عين الرشا لا مظنة ولا حول ولا قوة إلا بالله"[3].

[1] . الجامع: ج5 ص225.
[2] . الجامع: ج13 ص124.
[3] .الجامع: ج2 ص 240.

"وأما غيرهما من الأسواق فمشحونة منهن وقلة الحياء قد غلبت عليهن حتى ترى المرأة في القيساريات وغيرهن قاعدة متبرجة بزينتها وهذا من المنكر الفاشي في زماننا هذا نعود بالله من سخطه"[1].

وله شذرات نقدية تتعلق بالعادات الاجتماعية لا تخلو من تبصير سديد وتوجيه مفيد فيقول عند تفسيره الآية (100) من سورة يوسف: **(وخرّوا له سجدا)**:

"قلت: هذا الانحناء والتكفي الذي نسخ عنا قد صار عادة بالديار المصرية وعند العجم، وكذلك قيام بعضهم إلى بعض حتى أن أحدهم إذا لم يقم له وجد في نفسه كأنه لا يؤبه به وأنه لا قدر له، وكذلك إذا التقوا انحنى بعضهم لبعض، عادة مستمرة ووراثة مستقرة لا سيما عند التقاء الأمراء والرؤساء نكبوا عن السنن وأعرضوا عن السنن"[2].

وعند تفسيره للآية (49) من سورة النساء: (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم) يقول:" فقد دل الكتاب والسنة على منع تزكية الإنسان نفسه ويجري هذا المجرى ما قد كثر في هذه الديار المصرية من نعتهم أنفسهم بالنعوت التي تقتضي التزكية كزكى الدين ومحيي الدين وما أشبه ذلك لكن لما كثرت قبائح المسلمين بهذه الأسماء ظهر تخلف هذه النعوت عن أصلها فصارت لا تفيد شيئاً"[3].

هذه بشكل مجمل ملامح الحالة الاجتماعية في عصر القرطبي وأبعاد تأثيرها في شخصيته.

---

[1] . الجامع: ج13 ص17

[2] . الجامع: ج9 ص 265.

[3] . الجامع: ج5 ص 264.

ثالثاً: اسمه ومولده ونشأته الأولى:

حين اطلعت على المصادر التاريخية التي تعني بالتراجم والطبقات، وعلى بحوث ودراسات من سبقني في تناول حياة الإمام القرطبي وآثاره، وجدتها تلوذ بالسكون وتُمعن في التغافل وتحجم عن ذكر كل ما يتعلق ببواكير حياة الرجل وسيرته الأولى وما يتعلق بواقع أسرته وما كانت عليه من ذيوع وشهرة أو خمول وبساطة إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لو تيسّرت لكشفت لنا جوانب مهمة عن حقيقة حياة الرجل في مراحلها المختلفة.

وإنني أظن أن سبب هذا الإهمال وهذا الصدود من جانب المؤرخين يعود إلى حقيقة مفادها أن كتابة التاريخ في ذلك الوقت كانت تُوجه بحسب رغبة الملوك والحكام، وكانت تقتصر على تسجيل نشاط المقربين من السلطان وعلى رصد الأحداث والوقائع التي تصبُّ في صالح الحكام وتدعم سلطتهم. ولم يكن صاحبنا من هذا النمط وإنما كان له خطّه وسمته الخاص في الحياة، فهو يكره الظهور على مسرح الأحداث ويعتبره من باب الرياء ولم يكُ يوماً يطمع في مالٍ أو نسبٍ وإنما وظّف جهده في خدمة الشريعة وتبصير الناس بأمور دينهم ونياهم مضافاً إلى هذا كله أن الرجل لا يُحسن صفة التملق والتزلف، لذلك تلقى بصدره سهام هذا الجزاء القاسي من الإغفال والإهمال.

وقد اتفقت المصادر التاريخية على أمرين: اتفقت في الأمر الأول على عدم الإشارة إلى سنة ولادته وكيفية نشأته وأوقات رحلاته، واتفقت في الأمر الثاني على السنة التي مات فيها، لا بل تحديد يوم وفاته وأنه كان يوم الاثنين التاسع من شوال سنة 671هـ.

أما ما يتصل بنسبه فقد ذكرت هذه المصادر أنه يكّنى بأبي عبد الله ويلقب بالقرطبي الأنصاري الخزرجي، وأسمه محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح يتصل نسبه بسعد بن عبادة صاحب الرسول صلى الله عليه وسلم – ورئيس الأنصار، وسيد الخزرج.

وكان من عادات أهل المغرب والأندلس ومثار اعتزازهم الانتساب إلى المدن التي ولدوا فيها، لذلك كان الإمام أبو عبد الله يعرف بالقرطبي، لأنه ولد بقرطبة ونشأ فيها، وقرطبة كانت يومذاك تطاول أعظم مدن العالم حضارة وعلماً وتقدماً وحُسناً وهي كما يصفها الحجازي: (وقرطبة أعظم علماً وأكثر فضلاً بالنظر إلى غيرها من الممالك)[1].

وإذا كنا قد وقفنا على نسبهِ وموطن ولادته فإن سنة ولادته ونشأته وأوقات رحلاته وموقع أسرته ومكانتها في المجتمع كلها أمور لم تلقَ اهتماماً من المؤرخين ولم يشرْ إليها أحدٌ منهم كما نوّهنا عن ذلك قبل قليل.

وعلى الرغم من وعورة طريق البحث وصعوبة مداخله ونزارة الوقائع المتصلة بشخصية القرطبي لم نسمح لأن يركبنا قنوط أو تفتر لنا عزيمة، فواصلنا التنقيب والتحري حتى أدركنا حادثه مقتل أبيه التي حفرت أخاديد من الألم في وجدانه وغلفت أجواء نفسه بغمامة من الحزن ظلت لا تبارحه فتعرض لها وذكرها عند تفسيره قوله تعالى: **(ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون)**[2].

---

[1] . نفح الطيب، ج1 ص456.
[2] . الآية 170 من سورة ال عمران.

فهو يقول في المسألة الخامسة:

((العدو إذا صبّح قوماً في منازلهم ولم يعلموا به فقتلَ منهم فهل يكون حكمه قتيل المعترك أو حكم سائر الموتى. وهذه المسألة وقعت عندنا بقرطبة أعادها الله. أغار العدوّ-قصمه الله- صبيحة الثالث من رمضان المعظّم سنة سبع وعشرين وستمائة والناس في أجرانهم على غفلة فقتل وأسرَ وكان من جملة من قُتِلَ والدي رحمه الله. فسألت شيخنا المقرئ الأستاذ أبا جعفر أحمد المعروف بأبي حجة فقال: غسّله وصلِّ عليه فإن أباك لم يُقتل في المعترك بين الصفين. ثمّ سألت قاضي الجماعة أبا الحسن علي بن قطرال وحوله جماعة من الفقهاء فقالوا: غسّله وكفّه وصلِّ عليه ففعلتُ، ثم بعد ذلك وقفت على المسألة في "التبصرة لأبي اللخمي" وغيرها ولو كان ذلك قبلَ ما غسّلته لكنتُ دفنته بدمه في ثيابه))[1]

وحين وقعت حادثة مقتل والده كانت الأندلس في حينها تدين بالولاء لحكم بني هود بزعامة محمد بن يوسف بن هود المتوفى في 635 هـ الذي استطاع أن ينتزع بيعة كل مرسية وماردة وبطليوس، وقد رأى النصارى أن (ابن هود) أصبح خطراً يهددهم فأكثروا من الغزوات على أملاكه فاستولى ألفونسو التاسع ملك "ليون" على ماردة ولكليوس سنة 627 هـ وخرج ابنه فرناندو الثالث في نفس السنة من قشتالة بقواته واتجه جنوباً "وهو أينما سار يخرّب القرى وينسف الزروع وسبي الذرية فلعل الغارة التي أشار إليها القرطبي كانت على يد القشتاليين عندما اتجهوا إلى الجنوب فإن قرطبة تتاخم حدودهم وتقع في طريقهم"[2].

[1]. تفسير القرطبي ج 4 ص 272.
[2]. الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين الخطيب ج2 ص92.

ومع أن هذا النص المتعلق بمقتل والده لم يبدد الغموض الذي اكتنف حياة القرطبي ولكنه جعل في وسعنا أن نستنتج بعض الأمور فنقول إذا كان القرطبي لم ينشأ في أسرة علمية فإنه نشأ وتربّى في بيت تديّنٍ وصلاح وتقوى (وإن أباه كان يشتغل بالزراعة، وكان حصاد أحد المحاصيل يوم قتل مع غيره من المسلمين على يد النصارى بقرطبة سنة 627هـ)[1].

وأنه أصابه نوع من الندم لعدم دفن والده بدمه في ثيابه بعد أن وقف على حقيقة الحكم الشرعي الذي عليه أغلب الفقهاء والأئمة والقائل: إن أباه كان شهيداً وإنه كالمقتول في المعترك بين الصفين.

وإنه من الراجح قد ولد في أواخر القرن السادس الهجري أو في العقد الأول من القرن السابع الهجري أي أن ولادته وقعت ابان حكم الخليفة أبي عبد الله محمد الناصر ما بين 595-610هـ.

وذكر القصبي أن القرطبي ولد في أواخر القرن السادس الهجري أو قبل ذلك بقليل فانظر ما يقول: (.... ولكنني أستطيع أن أقول إن القرطبي ولد في عصر الموحدين فإذا فرضنا أنه ولد في الحلقة الأخيرة من القرن السادس الهجري أو قبل ذلك بقليل فإنه يكون قد وُلد في عهد الخليفة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن "580-595")[2].

ورأى القصبي أن متوسط عمر القرطبي عند مقتل والده كان أربعين سنة وهو استنتاج لا نراه قريباً من الحقيقة من ناحتين.

---

[1] . القرطبي ومنهجه في التفسير، د. القصبي محمود رلط ص7.
[2] .القرطبي ومنهجه في التفسير، محمود رلط ص8.

الأول: أنه لو كان في بحر هذا العمر حقيقةً – وفي سنٍّ توحي بالنضج العلمي والإدراك العقلي – لكان بمقدوره الوقوف بنفسه على طبيعة الحكم الشرعي لمقتل والده، ولما ألجأته الحاجة إلى التنقل بين شيوخه وفقهاء عصره يستفتي ويستفسر عن الحكم الشرعي لموت والده.

الثاني: إنه مما يخالف قانون الطبيعة للأشياء أن يكون مولد أحد شيوخه 581هـ وهو تاريخ مقارب لمولد القرطبي الذي حصره القصبي في عهد الخليفة يعقوب المنصور (580-595هـ) وهذا الفقيه هو "أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري زكي الدين الشامي ثم المصري الشافعي"[1].

فانظر المفارقة بين الأمرين، القرطبي التلميذ يولد احتمالاً في 580هـ أو يزيد بقليل ومولد شيخه المنذري سنة 581هـ على أن ما يصلح أن يكون تعزيزاً لرأينا في كلا الناحيتين المار ذكرهما، القول: إن أحداً من أصحاب التراجم والسير لم يذكر يوماً عن القرطبي أنه كان يشكو سقماً في الفهم أو آفه في الاستيعاب أو كان بطئ التعلّم أو متبلد الذهن وإنما ذكروا العكس تماماً فقد ذكروا ناحية ذكائه ونباهته وبراعته في قوة الحفظ والتحصيل بالإعجاب والاستحسان فهذا المقري ينقل عن الذهبي فيقول في وصفه: (كان يقظاً حسن الحفظ)[2].

وقد رجح محمد الدسوقي (بأن القرطبي ولد في العقد الأول من القرن السابع الهجري)[3].

---

[1] . انظر ترجمته في شذرات الذهب ج5 ص277 وانظر تفسير القرطبي ج8 ص9.

[2] . نفح الطيب، للمقري ج2 ص 211.

[3] . مجلة الأمة القطرية العدد 28 السنة الخامسة ص28 نقلاً عن القرطبي (القرطبي ومنهجه في توظيف القراءات) محمد بني إسماعيل الجموسي.

ونحن نميل إلى رأي محمد الدسوقي ولكننا من خلال حيثيات النص المرتبط بحادثة مقل والد القرطبي نرجّح أن ولادته وقعت ما بين سنة 595-610هـ وهي الفترة التي تمثل حكم الخليفة الموحدي أبي عبد الله الناصر.

وبذلك يكون عمر القرطبي سنة 627هـ - وهو تاريخ مقتل والده - ثلاثين سنة أو يزيد أو ينقص عن ذلك بقليل وهو ما ينسجم مع روايته للحادثة وما ظهر منه من تصرفات ومواقف.

طريقة تربيته وتعليمه:

لم يختلف القرطبي الصبي في تعليمه وتركيبته عن أقرانه من الصبيان فقد خضع كما خضع غيره إلى طريقة تعليمية واحدة اشتهر بها أهل الأندلس حيث تبتدأ يتعلم اللغة العربية والشعر إلى جانب تعلم القرآن الكريم، وهي طريقة تخالف طريقة أهل المشرق حيث يتعلم الصبيان القرآن وحده ثم سائر العلوم الأخرى.

يقول العلامة ابن خلدون في مقدمته:

"وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعلم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا الذي يراعونه في التعليم إلا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلاً في التعليم فلا يقتصرون عليه بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتابة إلى أن يخرج الولد من البلوغ إلى الشيبة وقد شدا بعض الشئ في العربية والشعر والبصر بهما"[1].

[1]. مقدمة ابن خلدون ص 447-448.

ولقد انتقد أبو بكر ابن العربي المتوفى سنة 543هـ طريقة الأندلسيين ودعا إلى تعليم الصبيان اللغة والشعر أولاً ثم القرآن الكريم لأنه بهذا يُسهل عليهم تعلم القرآن.

وامتدح ابن خلدون طريقة (ابن العربي) إلا أنه استدرك ذلك وقال: "إن الصبي إذا اقتصر تعليمه على اللغة والشعر حتى يكبر فقد يحول بينه وبين تعلم القرآن حائل أو تكثر عليه مشاغل الحياة فينقطع عن العلم، وهنا يفوته تعلم القرآن"[1].

ومما هو قمينٌ بالذكر أن الأندلسيين كان لهم شغفٌ خاص بالتعليم فينفقون ما بأيديهم على تربية أبنائهم للوصول بهم إلى مراتب المجد والرفعة في العلم والمعرفة لاقتناعهم بالمكانة التي يدركها المتعلم في بيئته ومجتمعه، يقول المقري: "ومتى عُرف بالمتعلم أصبح في مقام التكريم والإجلال ويشير الناس إليه بالبنان وينبه قدره ويعلوا بين الخاصة والعامة"[2].

ولم يقف القرطبي عند هذا الحد بل واصل تعليمه متنقلاً بين الكتاب وحلقات الدرس في قرطبة وما أكثرها يوم ذاك في تلك الديار وقد كانت المساجد أماكن طبيعية تقام بها الدروس وتنعقد فيها الحلقات، يقول المقري: ".. كان بكل ربض من أرباض قرطبة الأحد والعشرون من المساجد ما يقوم بأهله"[3].

وقد كان يوجد إلى جانب هذه الحلقات في المساجد بعض المعاهد العلمية وهو ما يشبه التعليم الجامعي. أما القرى فكان يقتصر فيها على المدارس التي

---

[1] . مقدمة ابن خلدون ص538

[2] . نفح الطيب ج1 ص205.

[3] . نفح الطيب ج2 ص7.

تشبه التعليم الابتدائي والثانوي في عصرنا، يقول محمد كرد علي: "أنشأ الأندلسيون في كل ناحية المدارس وخزائن الكتب وأقاموا في العواصم الجامعات التي كانت وحدها مواطن العلم في أوروبا زمناً طويلاً".[1]

ويعزز هذا القول ما أورده جودت الركابي بقوله: "وازدهرت المعاهد العلمية أيام الموحدين بالمغرب والأندلس وكانت المعاهد الأندلسية في أشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية يومئذ مجمع العلوم والمعارف ومقصد الطلاب من كل فج.[2]

وكان أهل الأندلس يتميزون عن غيرهم بميزة محمودة في استيفاء العلوم وتحصيلها فقد كانوا يأخذون أنفسهم بالصبر وتحمل المعاناة بعزيمة وأدب شديدين، وقد أتخذ القرطبي لنفسه هذا السمت وأخذ يشق طريقه بهمة ونشاط. وينقل لنا المقري حادثة تؤكد هذا الاتجاه فقد "سئل أحد الأندلسيين عن كلمة لغوية فعجز عن معناها أمام من يخجل بحضرته فأقسم أن يُقيد رجليه بقيد حديد ولا ينزعه حتى يحفظ (الغريب المصنف) وهو كتاب لغوي لابن سلام المتوفى سنة 222هـ، فاتلفق أن دخلت عليه أمه وهو في تلك الحال فارتاعت فقال:

ريعت عجوزي أن رأتني لابساً ... حلق الحديد ومثل ذال يروعُ
قالت جننـــت فقلت بل هي همة ... هي عنصر العلياء والينبوعُ
ســـن الفرزدق سُـــنة فتـــبعتها ... إني لمـــا سنَّ الكرام تبوعُ"[3]

[1]. الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي ج1 ص260.
[2]. في الأدب الأندلسي الدكتور جودت الركابي ص57.
[3]. في الأدب الاندلسي الدكتور جودت الركابي ص 57.

والفرزدق الشاعر المعروف وهو الذي سن ذلك حيث قيد رجليه وأقسم ألا ينزعهما حتى يحفظ القرآن الكريم.

وبهذا الصبر الجميل وهذه العزيمة القوية استطاع القرطبي أن يقف على كُنه المسألة التي استفتى بها شيوخه في كتاب (التبصرة) والتي شغلته ولازمته طوال هذه الفترة من حياته وبذلك هدأت عاصفة روحه بعد أن حصل له اليقين أن والده مات شهيداً.

وهو الصبر نفسه والعزيمة نفسها اللذان جعلا منه منارة من منارات الدين وعلماً من أعلام الفكر وينبوعاً يتفجر حكمة.

شيوخه:

في النص الذي أورده القرطبي عند تفسيره قوله تعالى **(ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون)**. الآية، والمتعلق بحادثة مقتل والده نراه يُشير إلى عدد من شيوخه الذين استفتاهم عن النازلة وتتلمذ عليهم في قرطبة فقد ذكر منهم (أبو جعفر أحمد بن محمد بن القيسي) المعروف بابن أبي حجة. وقد ذكره القرطبي في تفسيره ج4/ ص272 و ج5/ ص370، وهو من أهل قرطبة تولى قضاء اشبيلية، وكان عالماً بالعربية وعلوم القرآن الكريم وله عدة مؤلفات من بينها اختصار في الجمع بين الصحيحين. وحين سقطت قرطبة سنة 633هـ غادرها إلى اشبيلية وسكن فيها حيناً ثم بارحها واتجه إلى ميورقة فأسرته الروم وامتحن بالتعذيب والإذابة "وتوفى على أثر ذلك بميورقة سنة 643هـ".[1]

[1] . عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس القسم الثاني ص675 نقلاً عن التكلمة لأبن الأبار.

ومن شيوخه (ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري) وكان من أهل قرطبة ومن قضاتها، وقد ذكره القرطبي في تفسيره ج4 ص272. يقول عنه ابن الأبار: "وكان رجلاً صالحاً عدلاً في أحكامه نبيه القدر والبيت."[1] ثم بين أنه له مشاركة في علم الحديث وتحدّث عن خروجه من قرطبة فقال: "وخرج من وطنه حين استولى الروم عليه يوم الأحد الثالث والعشرين لشوال سنة 633هـ فنزل اشبيلية وبها توفى فيما بلغني على أثر ذلك".

ومن شيوخ القرطبي الفقيه المتوفي الإمام المحدث القاضي (أبي عامر يحيى بن عامر بن أحمد بن منيع الأشعري) المتوفي سنة 637هـ. وتلقى عنه بقرطبة، وقد ذكر القرطبي أقوال بعض الصحابة بسنده عنه عند تفسيره قوله تعالى **(من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون)**[2] فقال في المسألة الأولى: ولما نزلت هذه الآية بادر أبو الدحداح إلى التصدق بماله ابتغاء ثواب ربه، ثم قال:"أخبرنا الشيخ الفقيه الإمام المحدث القاضي ابو عامر يحى بن عامر بن أحمد بن منيع الأشعري نسباً ومذهباً بقرطبة" أعادها الله في ربيع الآخر عام ثمانية وعشرين وستمائة قراءة مني عليه قال: أخبرنا أبي إجازة قال: قرأت على أبي بكر عبد العزيز بن خلف بن مدين الأزدي عن أبي عبد الله سعدون سماعاً عليه قال: حدّثنا أبو الحسن علي بن مهران قال: حدثنا أبو الحسن محمد بن عبد الله بن زكريا بن حيوة النيسابوري سنة ست وستين وثلاثمائة قال: أنبأنا عمي أبو زكريا يحى بن زكريا قال حدثنا محمد بن معاوية بن صالح قال حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت **(من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً)** قال" : أبو الدحداح" يا رسول الله أو إن الله تعالى يريد

[1] .التكلمة لأبن الأبار ج1 ص61 وما بعدها.
[2] .الأية 245 من سورة البقرة.

منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح، قال: أرني يدك، قال، فناوله. قال: فإني أقرضت الله حائطاً فيه ستمائة نخلة، ثم جاء يمشي حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيه وعياله فناداها/ يا أم الدحداح قالت: لبيك، قال أخرجي فقد أقرضت ربي عز وجل حائطاً فيه ستمائة نخلة".[1]

في هذا النص يذكر القرطبي أن شيخاً من شيوخه أخبره قراءة منه عليه بسبب نزول هذه الآية. وهو أمر متعارف عليه عند العلماء فالقراءة طريق من طرق الرواية والتحمل ولا خلاف في ذلك.

أما الشيخ الذي ذكر أنه قرأ عليه فإن المراجع لم تذكره في جملة شيوخه وأن هناك كثيراً من اللبس والخلط بينه وبين آخرين وقعت لهم ترجمة يحملون الكنية نفسها، ولكن القصبي يرجّح "أن هذا الشيخ يدعى يحي بن عبد الرحمن لا يحي بن عامر وأن التحريف وقع من الناسخ كما وقع في لفظ (منبع) والأصح أنه (ربيع) ويبدو أن هذا الشيخ هو شقيق شيخ القرطبي السابق ذكره، وهو ربيع بن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع بن أُبيّ."[2]

ومن شيوخ القرطبي الذين أشار إليهم في تفسيره الجامع (أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي المالكي المتوفى سنة 656هـ)، ولد بقرطبة وكان من أعيان فقهاء المالكية العلامة الفقيه المحدّث المتفنن، وهو وإن لم يتتلمذ على السلفي وأبن عوف، فإنه عاش في تلك البيئة الثقافية التي أوجدتها مدرسة أبن عوف والسلفي بالإسكندرية قال عنه ابن العماد:" وكان من كبار الأئمة"[3].

---

[1] . تفسير القرطبي ج3 ص237.
[2] . القرطبي ومنهجه في التفسير للدكتور القصبي محمود زلط ص17.
[3] . شذرات الذهب لابن العماد ج5 ص273.

وقال المقري: "وكان بارعاً في الفقه والعربية عارفاً بالحديث.[1]، أما ابن فرحون فقد قال في حقه: "كان يشار إليه بالبلاغة والعلم والتقدم في علم الحديث وأخذ عنه الناس من أهل المشرق والمغرب"[2].

ومن مؤلفاته شرح الصحيح مسلم سماه: (المعجم في شرح مسلم) وهو من أجل الكتب وأكثرها اعتماداً عند العلماء.

ومنهم (ابن رواج) الإمام المحدث الفقيه، قال الذهبي في ترجمته: "الشيخ الإمام المحدث مسند الإسكندرية رشيد الدين أبو محمد عبد الوهاب بن رواج واسمه ظافر بن علي بن فتوح الازدي الاسكندراني المالكي ولد سنة أربع وخمسين وخمسمائة".[3] وكان من خريجي مدرسة السلفي وابن عوف تلامذة الطرطوشي، ثم عاد الذهبي فامتدحه بقوله: "كان فيهاً فطناً ديناً متواضعاً صحيح السماع انقطع بموته شئ كثيرٌ، وكانت وفاته سنة ثمان وأربعين وستمائة في الثامن عشر من ذي القعدة".[4]

ومن شيوخه (ابن الجميزي) بهاء الدين ابو الحسن علي بن هبة الله بن سلامة بن المسلم بن أحمد بن علي اللخمي المصري الشافعي المتوفى سنة 649هـــ. وهو من العلماء الإعلام والفقهاء العظام تتلمذ بالإسكندرية على السلفي وأبن عوف وبمصر على ابن بري، وكان مدار الفتوى ببلده رحل إليه الطلبة يقصدونه من كل الآفاق. وقد امتدحه السبكي في طبقاته وأثنى على أخلاقه وعلمه بقوله: "وكان الفقيه بهاء الدين خطيب الجامع بالقاهرة ومدرس الديار المصرية

---

[1] . نفح الطيب للمقري ج2 ص215.
[2] . الديباج المذهب، ابن فرحون ص68.
[3] . الديباج المذهب، ابن فرحون ص 86.
[4] . سير إعلام النبلاء، للذهبي ج31 ب، وانظر شذرات الذهب لابن العماد ج5 ص 242.

وشيخها ورئيس العلماء بها درس وأفتى دهراً، وكان كبير القدر رفيع الجاه وافر الحرمة معظماً عند الخاص والعام."[1]

وإذا كان شيخنا القرطبي قد أخذ على ابن الجميزي في الحديث والقراءات والتفسير فهل تتلمذ عليه في الفقه؟ إذا ما علمنا أن ابن الجميزي كان شافعي المذهب وكان القرطبي مالكياً؟.. الواقع لا تمانع أن يكون القرطبي قد تتلمذ عليه في فقه الشافعية وهو أمرٌ ليس بمستعبدٍ من ناحيتين:

الأولى: إن الطرطوشي وهو الفقيه المالكي عندما دخل بغداد تتلمذ على كثير من فقهاء الشافعية".[2]

الثانية: إن خواص الفقهاء بالأندلس لم يقتصروا على دراسة مذهب مالك وكانوا يدرسون سائر المذاهب"[3] كما يذكر المقري، وخاصة أن المالكية والشافعية التقيا تحت راية الأشعرية من حيث الأصول.[4]

ومن شيوخ القرطبي أبو علي صدر الدين البكري وهو الحسن بن محمد ابن محمد بن عمرو التيمي النيسابوري ثم الدمشقي المتوفى سنة 656هـ، ولد بدمشق وكان كثير التجوال والترحال التماساً لطلب العلم حتى أطلق عليه المؤرخون (الرحّال).

---

[1] . طبقات السبكي ج5 ص127.
[2] . إعلام الإسكندرية، الدكتور جمال الدين الشيال ص60.
[3] . نفح الطيب للمقري، ج1 ص 102.
[4] . الأصول المالكية، لعثمان إبراهيم علي (ورقة بحث) ص5.

قال الذهبي في صدر ترجمته: "الشيخ الإمام المحدّث المفيد الرحّال"[1].

وكان يُعمر من استقامته ويطعن في حاله يقول الذهبي في حقه: "وليس هو بالقوي ضعفه عمر بن الحاجب فقال: كان إماماً عالماً لَساناً فصيحاً مليح الشكل أحد الرحالين إلا أنه كان كثير الدعاوي عنده مداعبه ومجون داخل الأمراء وحدد مظالم. سألت الحافظ ابن عبد الواحد عنه فقال: بلغني أنه يقرأ على الشيوخ فإذا أتى على كلمة مشكلة تركها ولم يبينها. وكان قد صَلُحَ حاله فتحول إلى مصر ومات بها"[2].

ومن شيوخه أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري زكي الدين الشامي ثم المصري الشافعي المولود سنة 581هـ والمتوفى سنة 656هـ. وقد ذكره القرطبي في تفسيره ج8 ص9. وصفه ابن العماد بأنه: "الإمام العلامة الحافظ، حافظ وقته حديثاً وفقهاً برع في الفقه والعربية"[3]. سمع الحديث بمكة ودمشق وحران والإسكندرية، وكان مفتي مصر من تصانيفه: مختصر مسلم ومختصر سنن أبي داود وله عليه حواش مفيدة وله كتاب: الترغيب والترهيب في مجلدين وهو كتاب نفيس.

لقد كان لهؤلاء الشيوخ الذين أخذ عنهم القرطبي وهم كما نعلم أمراء علم وموسوعات ثقافية – أقول كان لهم تأثير واضح في تكوينه الثقافي وبناء شخصيته العلمية وهو ما سيتضح في الفصول القادمة.

---

[1] .تذكرة الحفاظ للمقري، ج4 ص144.
[2] . سر إعلام النبلاء للذهبي ص 13 نسخة مصورة.
[3] . شذرات الذهب لابن العماد ج5 ص277.

الكتب التي تتلمذ عليها:

وبعد أن ختم القرطبي المرحلة الأولى من تلمذته على شيوخ عصره وبعد أن اطمأن على واقعه المعرفي وما قطفه من ثمرات من دراساته شعر أن المرحلة الثانية من تلمذته قد حان أوانها فأتجه إلى ما أنتجته قرائح العلماء وما أبدعته عقولهم من مؤلفات في العلوم الدينية، وعلوم اللغة، والنحو والتاريخ والأدب، فانكب عليها ينهل من خير علومها ويتزود من عذب ثقافتها. ونحن لو تصفحنا "فهرسة ابن خير، وشيوخ ابن عطية ورسالة ابن حزم وتذييلها" لها لنا هذا العدد الضخم من المؤلفات والموسوعات والتصانيف والذي يجعلنا نقف على نوعية الثقافة التي كانت سائدة في الأندلس، كما يساعدنا على إدراك هذا الكم الكبير من الكتب والتصانيف التي قرأها وطالعها القرطبي وألوان الثقافة وأصناف العلوم التي استقاها منها وقد ظهر هذا واضحاً في تفسيره الجامع عند إشارته إلى الكتب التي اقتبس منها.

وكانت أكثر إحالاته على كتب التفسير، والحديث، والقراءات، وعلم الكلام، وعلوم اللغة، والنحو، والتاريخ، و أيام العرب وأمثالها وغيرها، مما نرى تفسيره الجامع يزدحم بها.

ومن خير الأمثلة على إحالاته العبارة التي ذكرها في حادثة مقتل أبيه إذ قال: "ثم وقفت على المسألة في التبصرة لأبي الحسن اللخمي"[1].

[1] . تفسير القرطبي، ج4 ص272.

وهكذا فإن اعتماد القرطبي على المؤلفات في الاستزادة من العلم والثقافة كان له تأثير بالغ في ترصين شخصيته وتلوين ثقافته على نحو يتراءى لنا في تفسيره الجامع بأنها شخصية موسوعية أخذت من كل علم بطرف.

أخلاقه وثقافته:

كان القرطبي من المعتصمين بحبل الله خالص النية كامل الإيمان متخصناً بذخيرة حية من فضائل الأخلاق المحمودة وشمائل العادات المشهودة، وهي لعمر الله حصاناتٌ جعلته في منأى عن كل طعن وتجريح، فلم يقع في سمعنا أو علمنا أن أحداً أخذه بشئ من هذا، وإنما كان الرجل مناط إجلالٍ وثناء وتوقير وإطراء من جانب المؤرخين والعلماء فهذا ابن فرحون يقول عنه: "وكان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين"[1].

ويصفه الداوودي بقوله: "وكان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة. أوقاته معمورة ما بين توجّه وعبادة وتصنيف"[2].

ويقول عنه العلامة ابن مخلوف: "كان من عباد الله الصالحين والعلماء العاملين"[3].

ومما نستخلصه من أقوال مؤرخيه أن الرجل كان من الزاهدين الذين آثروا الباقية على الفانية وكان من أهل الورع وأصحاب التقوى يربأ بنفسه عن

[1] . الديباجج المذهب، لابن فرحون ج2 ص 308.
[2] . طبقات المفسرين للداوودي ج2 ص69.
[3] . شجرة النور الزكية لأبن مخلوف ص 197.

مواطن الشبهة والريبة، طاهر الثوب، أمين اليد، عفّ اللسان، صالح السريرة حسن السيرة، صادقاً ثقةً فيما يقوله وينقله.

على أن الزهد الذي أخذ القرطبي نفسه به لا ينبغي أن يفهم منه إن الرجل حرم الطيبات على نفسه كما يفعل بعض المتصوفة، وإنما كان يتخذ الأمر بين الأمرين سبيلاً وطريقة له فيما تقبل عليه النفس وترغبه، فلا حرمان ولا إسراف، ولهذا نراه يهاجم منهج المتصوفة الذين ابتعدوا عن تعاليم الإسلام ومخالفة سنة سيد الأنام حين فهموا أن التمتع بالطيبات ينافي الزهد.

فقد قال في قوله تعالى: **(يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعدوا إن الله لا يحب المعتدين)**[1].

"قال علماؤنا رحمة الله عليهم في هذه الآية وما شابهها والأحاديث الواردة في معناها رداً على غلاة المتزهدين وعلى أهل البطالة من المتصوفين إذ كل فريق منهم قد عدل عن طريقه وحاد عن تحقيقه. قال الطبري: لا يجوز لأحد من المسلمين تحريم شئ ما أحل الله لعباده المؤمنين على نفسه من طيبات المطاعم والملابس والمناكح إلا إذا خاف على نفسه بإحلال ذلك بها بعض العنف والمشقة. ولذلك رد النبي صلى الله عليه وسلم التبتل على ابن مظعون.

فثبت أنه لافضل في ترك شئ ما أحله الله لعباده وإن الفضل والبر إنما هو في فعل ما ندب عباده إليه وعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنه لأمته وأتبعه على منهاجه الأئمة الراشدون إذ كان خير الهدى هدى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فإذا كان كذلك تبين خطأ من آثر لباس الشعر والصوف

[1] سورة المائدة آية 87.

على لباس القطن والكتان إذا قدر على لباس ذلك من حله. وآثر أكل الخشن من الطعام وترك اللحم وغيره حذراً من عارض الحاجة إلى النساء، قال الطبري: فإن ظن أن الخير في غير الذي قلنا لما في لباس الخشن وأكله من المشقة على النفس وصرف ما فضل بينهما من القيمة إلى أهل الحاجة فقد ظن خطأ وذلك أن الأولى بالإنسان إصلاح نفسه وعونه لها على طاعة ربها ولا شئ أضر للجسم من المطاعم الرديئة لأنها مفسدة لعقله ومضعفة لأدواته التي جعلها الله سبباً إلى طاعته"[1] .

وفي قوله تعالى: **(قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة)**[2] .

يذكر أن الآية تدل على لباس الرفيع من الثياب والتجمل بها في الجمع والأعياد وعند لقاء الناس ومزاورة الاخوان.

ثم قال بعد أن استدل ببعض الأحاديث على ذلك "فأين هذا ممن يرغب عنه ويؤثر لباس الخشن من الكتان والصوف من الثياب ويقول: ولباس التقوى ذلك خير. هيهات أترى من ذكرنا – يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة – تركوا لباس التقوى. لا والله بل هم أهل التقوى وأولوا المعرفة والنهي، وغيرهم أهل دعوى وقلوبهم خالية من التقوى"[3] .

وقد روى عن عمر رضى الله عنه: "إذا وسع الله عليكم فأوسعوا".

---

[1] . تفسير القرطبي ج6 ص262.
[2] . سورة الأعراف، الآية 30.
[3] . تفسير القرطبي ج7 ص 196.

وروى عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب شيخ مالك رضى الله عنهم: أنه كان يلبس كساء خز بخمسين ديناراً يلبسه في الشتاء فإذا كان الصيف تصدّق به أو باعه فتصدق بثمنه وهو يقول: (قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق). وقال في معرض شرحه للطيبات من الرزق قال: قال أبو الحسن علي بن المفضل المقدسي شيخ أشياخنا: لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه امتنع عن طعام لأجل طيبه قط بل كان يأكل الحلوى والعسل والبطيخ والرطب وإنما يكره التكلف لما فيه من التشاغل لشهوات الدنيا عن مهمات الآخرة والله تعالى أعلم"[1].

ومما تقدم يتضح لنا حقيقة زهد القرطبي الذي أكد أن التجمل بالثياب عند لقاء الناس لا ينافي الزهد في شئ ولكن هذا لا يتفق مع ما ذكره المؤرخون ومنهم الداوودي الذي مدحه عن عدم تكلفه فقال: وكان طارح التكلف يمشي بثوب واحد وعلى رأسه طاقية"[2].

وإذا كان هذا اللباس لا يعني التقشف فهو في الوقت نفسه لا يشبه اللباس الذي عرف به أهل الأندلس.

يقول الدكتور مصطفى الشكعة: "لقد كان الأندلسيون – وهذه صناعة بلادهم من النسيج الفاخر – يصنعون ملابسهم من الأنسجة ذات الأثمان المتفاوتة والألوان المختلفة وقد كانوا يطلقون على الثوب اسم حلة، والحُلة على الأغلب مصنوعة من الحرير الموشى بخيوط ذهبية، وقد تصنع الملابس من الديباج وهو حرير سميك لحمة وسدىً كما تصنع من القطن المزخرف بأشكال هندسية على

[1] . تفسير القرطبي ج7 ص 198.
[2] . طبقات المفسرين للداوودي ترجمة رقم 88 نسخة خطية.

شكل معينات. على أن اللباس العام الذي يلبسه الناس كان الطيلسان، وهو الثوب الموصل به غطاء الرأس، أما غطاء الرأس فكان العمامة لمن أراد"[1].

هذا ويقول المقري: "وأهل الأندلس أشدُّ خلق الله اعتناء بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك مما يتعلق بهم، ومنهم من لا يكون عنده ما يقوت يومه فيطويه صائماً ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها"[2].

فمن خلال هذين النصين نفهم أن القرطبي قد خالف في لباسه ما تعارف عليه أهل بلده من اللباس وإنه كان معنياً بمظهره ونظافته ولكنه لم يبالغ في ذلك مبالغة أي أندلسي في العناية بمظهره بحيث يطوي النهار صائماً في بيته ولا يخرج على الناس بهيئة مستقبحة تنفرها النفوس وتمجها الأذواق كما أنه لم يكن رثّا قبيح الهيئة.

على أن المؤرخين – كما رأينا فيما سبق – كانوا قد نعتوا القرطبي بالورع وهي صفة تأبى على صاحبها قبول هدايا وجوائز الملوك والأمراء، كما نقل القرطبي صاحبنا عن أن (أبن عبد البر القرطبي) قد أفتى بجواز قبول هدايا الملوك والأمراء، وإن قبول الهدايا نفسه لا ينافي الورع، وإذا كان القرطبي قد ارتضى هذه الفتوى فلا حرج عليه – يقول المقري في كتابه " نفح الطيب" نقلاً عن القرطبي في كتابه " قمع الحرص بالزهد والقناعة" – " روينا أن الإمام أبا عمر بن عبد البر بَلغه وهو (بشاطبة) أن أقواماً عابوه بأكل طعام السلطان وقبول جوائز فقال:

[1] . الأدب الأندلسي، الدكتور مصطفى الشكعة ص 84.
[2] . نفح الطيب للمقري ج1 ص 104.

قل لمن ينكر أكلي لطعام الأمراء أنت من جهلك هذا في محل السفهاء لأن الإقتداء بالصالحين من الصحابة والتابعين وأئمة الفتوى من المسلمين من السلف الماضي هو ملاك الدين. فقد كان زيد بن ثابت – وكان من الراسخين في العلم – يقبل جوائز معاوية وابنه يزيد، وكان ابن عمر مع ورعه وفضله يقبل هدايا صهره المختار بن عبيد ويأكل طعامه ويقبل جوائزه.

وكان مالك وأبو يوسف والشافعي وغيرهم من فقهاء الحجاز والعراق يقبلون جوائز السلاطين والأمراء وكان سفيان الثوري مع ورعة وفضله يقول: جوائز السلاطين أحب إليّ من صلة الأخوان لأن الأخوان يمنون والسلطان لا يمنُّ. ومثل هذا عن العلماء والفضلاء كثير..

ثم يقول: وما أعلم من علماء التابعين أحداً تورع عن جوائز السلطان إلا سعيد بن المسيب بالمدينة ومحمد بن سرين بالبصرة وهما قد ذهبا مثلاً في التورع.. ويبالغ إبن عبد البر في فتواه – التي ارتضاها القرطبي – في ذم من عاب عليه فيقول: والزهد في الدنيا من أفضل الفضائل ولا يحلُّ لمن وفقهُ الله تعالى وزهد فيها أن يحرم ما أباح الله تعالى منها والعجب من أهل زماننا يعيبون الشبهات وهم يستحلون المحرمات ومثالهم عندي كالذين سألوا عبد الله ابن عمر رضى الله عنهما عن المحرم يقتل القراد.. فقال للسائلين له: من أنتم؟ فقالوا: من أهل الكوفة. فقال: تسألونني عن هذا وأنتم قتلتم الحسين بن علي رضى الله تعالى عنهما."[1]

وإذا تصفّحنا كتبه التي تركها ألفناهُ مكمنَ التواضع والحياء ومستقر الورع والتقوى، وحصن الشريعة والملة، يقول في الآية (176)، والآية (177)

[1] . نفح الطيب للمقري ج2 ص210.

من سورة الأعراف: (فدلّتْ الآية لمن تدّبرها على أن لا يغتر أحدُ بعمله ولا بعلمه إذ لا يدري بما يختم له)[1].

ويقول في الآية (67) من سورة النحل المسألة الثانية معقباً على ابن العربي الذي هاجم الحنفية بعبارات قاسية " قلتُ هذا تشنيع شنيع حتى يلحق فيه العلماء الأخيار في قصور الفهم بالكفار"[2].

وإذ كان أخلاق القرطبي قد استوفت حقها من الثناء والإشادة من جانب المؤرخين فإن ثقافته قد نالت هي الأخرى نصيبها من الشيء ذاته، فقد جاء في طبقات السيوطي نقلاً عن الذهبي القول: "إمامُ متفنن متبحر في العلم له تصانيف مفيدة تدل على كثرة إطلاعه ووفرة علمه".[3]

وبعد أن ذكر بعض مؤلفاته قال السيوطي: "وله أشياء أخرى تدل على إمامته وذكائه.

وقال عنه بن العماد: "كان إماماً عالماً من الغواصين على معاني الحديث حسن التصنيف جيد النقل"[4].

ونقل صاحب النفح عن ابن شاكر الكتبي إنه قال في حقه: "كان شيخاً فاضلاً وله تصانيف مفيدة تدل على كثرة إطلاعه ووفرة علمه".[5]

[1] . تفسير القرطبي ج7 ص323.
[2] . تفسير القرطبي ج10 ص130.
[3] . طبقات المفسرين للسيوطي ص79 رقم الترجمة 88.
[4] . شذرات الذهب لابن العماد ج5 ص335.
[5] .نفح الطيب للمقري ج2 ص 210-211.

ويقول الصفدي: "هو العلامة أبو عبد الله الأنصاري الخزرجي القرطبي إمام متبحر في العلم له تصانيف مفيدة تدل على كثرة إطلاعه ووفرة فضله".[1]
ونقل المقري عن الذهبي: "رحل وكتب وسمع وكان يقظاً فهماً حسن اللفظ مليح النظم حسن المذاكرة ثقة حافظاً".[2]

ويقول عنه الشيخ بن مخل: "القرطبي العالم الإمام الجليل الفاضل الفقيه المفسر المحصل المحدّث المتفنن الكامل".[3]

رحلته إلى الديار المصرية:

تتفق كتب التراجم والطبقات على أن القرطبي اختار الديار المصرية بعد مغادرته الأندلس، وإنه قدم إلى الإسكندرية وأقام بها فترة قبل أن يستقر بمنية الخصيب بالصعيد، ولكنها في الوقت نفسه أغفلت الإشارة إلى تاريخ قدومه إلى مصر، يقول الدكتور أحمد أحمد بدوي في مجلة الرسالة في مقال له عن القرطبي: "ولد بقرطبة من بلاد الأندلس وتلقى بها ثقافة واسعة في الفقه والنحو والقراءات... ودرس البلاغة، وعلوم، القرآن، واللغة،.. ثم قدم إلى مصر ولستُ أدري متى قدم إلى مصر".[4]

ويبدو أنه غادر قرطبة بعد فترة من سقوطها واستيلاء العدو عليها سنة 633هـ يقول المقري: "ولم تزل قرطبة بها الزيادة منذ الفتح الإسلامي إلى سنة

[1] . الوافي بالوفيات للصدفي ج2 ص122.
[2] . نفح الطيب للمقري ج2 ص211.
[3] . شجرة النور الزكية لابن مخلوف ص 197.
[4] . مجلة الرسالة عدد 858 لسنة 1949 ص 1703.

أربعمائة، فانحطت واستولى عليها الخراب لكثرة الفتن إلى أن كانت الطامة الكبرى عليها بأخذ العدو الكافر لها ثالث وعشرين شوال سنة 633هـ".[1]

ولكننا لا نستطيع أن نحدد المكان الذي توجه إليه القرطبي بعد مغادرته قرطبة هل تحول إلى اشبيلية أو غيرها من المدن الأندلسية قبل عزمه السفر إلى الديار المصرية التي آثرها على ما سواها من البلاد، أم أنه قدم إلى مصر مباشرة؟ هذا ما لا نقدر الجزم به أو التحكم باحتمالاته وهو ما بقى مجهولاً حتى يومنا هذا.

وعلى أية حال فالأمر ليس من السهولة بمكان أن يهجر الإنسان وطنه ومرابع صباه ولكنها الإرادة الربانية لا تُتيح بل تُحرم العيش والإذعان لولاية الكفار، وهكذا وجد القرطبي نفسه وجهاً لوجه أمام الحقيقة الشرعية التي تقضي بالهجرة إلى بلد آمن أمين للمحافظة على مبيضة الدين فطابت نفسه وسارعت إلى تطبيق الحكم الشرعي لقوله تعالى: "**انّ الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم كما مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأوهم جهنم وساءت مصيرا إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا**".[2]

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "مَن فرَّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شهراً استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم ومحمدٍ عليهما السلام".[3]

---

[1] . نفح الطيب للمقري ج1 ص458.
[2] . سورة النساء الآيات من 97-99.
[3] . تفسير القرطبي ج5 ص 347.

وقال سعيد بن جبير: "إذا عمل بالمعاصي في أرض فأخرج منها" وتلا: "ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها. أما لماذا اختار الديار المصرية على بلاد المغرب القريبة منه، فمرجع ذلك يعود إلى الأحوال السياسية المضطربة التي كانت تمر بها المغرب أواخر دولة الموحدين بعد وقعة العقاب المشئومة.

ومما تقدم ذكره أن القرطبي قدم إلى الاسكندرية وأقام بها فترة قبل أن يستقر بالصعيد، وذلك لأن الإسكندرية تقع في طريق من يقصد صعيد مصر أو يقصد القاهرة من الأندلسيين سواء سلكوا طريق البرّ أو سلكوا طريق البحر.

ولقد تلقى القرطبي أثناء مقامه بالإسكندرية ألواناً من الثقافة الإسلامية على بعض الشيوخ الذين تخرجوا من مدرسة الطرطوشي وابن عوف والحافظ السلفي.

فقد تتلمذ على الإمام المحدّث أبو محمد بن عبد الوهاب بن رواج الذي جاء ذكره عند تعرضنا لشيوخه، وكانت وفاة هذا الشيخ سنة 648هـ. وهذا يؤكد لنا أن القرطبي جاء إلى الإسكندرية قبل سنة 648هـ.

وبعد أن أقام القرطبي بالإسكندرية فترة لا نعرف مقدارها بعد هذا خرج منها وأتجه إلى (منية الخصيب) واستقر بها إلى أن توفى سنة 671هـ ولا ندري لماذا اختار القرطبي منية الخصيب سكناً له ومستقراً.

..وللموضوع بقية في بحث آخر إن شاء الله..